20100413 - 002 - R

وقفة

صحافيون بلباس الميدان انسحبوا إلى الأرشيف...

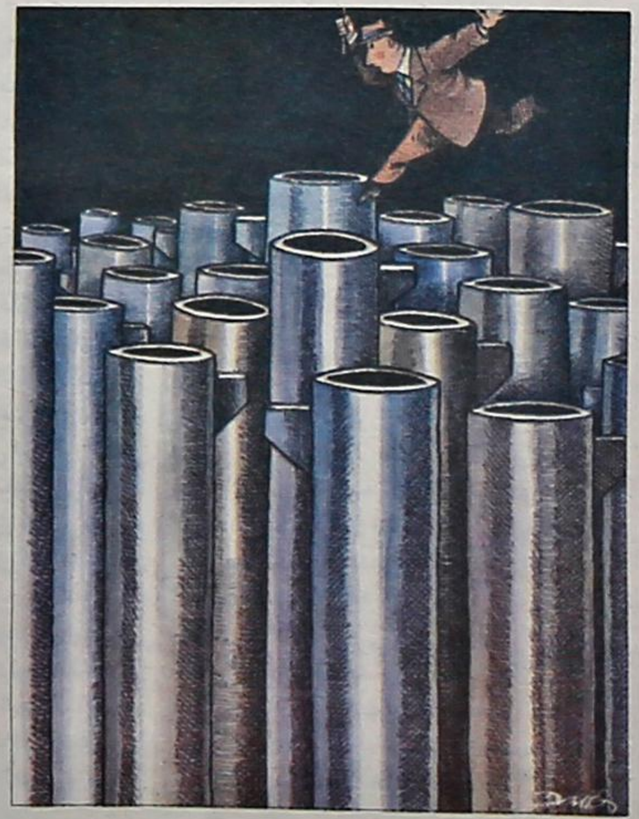

داريو ـ المكسيك

بيسان طي

مي ضاهر يعقوب «صحافيّة بثياب الميدان». المرأة التي تسلّل الشيب إلى رأسها، تشهر كتابها الذي صدر أخيراً بطبعته الثانية، لتذكّر بأنّها نزلت إلى الميدان في أحلك الظروف التي شهدها لبنان. هي ابنة جيل من الصحافيين طرقوا أبواب المهنة مع بداية الحرب الأهلية اللبنانية وقرروا أن يصغوا إلى ذلك النداء الخفيّ الذي يشدّهم إلى مهنة المتاعب... والمخاطر.

هل قلنا مهنة المتاعب؟ نغلفش أوراق مي، فنعرف أنّ ما نشهده اليوم من متاعب كصحافيين لا يمكن أن يُقارن بما عاشه ذلك الجيل. عن أيّ متاعب نتحدث نحن؟ عن انفجارات أو حروب غطيناها؟ عن تلاعبات السياسيين وانقساماتهم؟ عن التجييش الطائفي والمذهبي والإشكالات المتنقلة من منطقة إلى أخرى؟ إنها محطات متقطّعة في حياتنا المهنيّة الحاليّة، لكنها كانت واقعاً يومياً في مسيرة جيل، واقعاً يزداد وحشيّة وضراوة وخطراً في تصاعد هندسي مرعب.

مي ضاهر وأبناء جيلها الصحافي رووا الحرب كلّها وتابعوها وسجّلوها في ذاكرة لبنان والعالم. قبل حادثة بوسطة عين الرمانة الشهيرة وبعدها، كان هؤلاء الصحافيون في الميدان خلال حرب السنتين، وأثناء الاجتياح الإسرائيلي، وفي سوق الغرب، والشريط الحدودي الذي كان محتلاً. إنهم صحافيون حملوا «دمهم على كفهم» يومياً كي «يشهدوا» ـ كل من وجهة نظره ـ على فظائع الموت والدمار والخوف. هكذا ساهم كل في رسم جانب من الصورة العامة، تلك الصورة التي صارت اليوم أرشيف الحرب. نعيد اليوم تصفح كتاب مي ضاهر يعقوب، «صحافية بثياب الميدان»، بغض النظر عن كل الانتقادات والمآخذ التي يمكن أن تراود القارئ. نتصفحه كعيّنة ميدانيّة عن تجربة جيل ومرحلة، في ذكرى انقضاء 35 سنة على اندلاع الحرب الأهليّة. نقرأ النص ونتوقف عند الصور التي ضمّها الكتاب، نراها واقفة وسط الدمار، والقنابل تتفجّر من خلفها. تشهد الصور على وجوه صحافيين مغطاة برمال بيضاء، وفي نظراتهم شيء يصعب وصفه. إنه الذعر الممزوج بعناد الذين رفضوا «ترك الميدان» قبل أن يشهدوا ويبلغوا بما رأوه.

لكن، أين هؤلاء اليوم؟ سيطول البحث. «الأزمة الماليّة» جرفت من جرفت منهم، وتسارع الأحداث وتغيّر الأزمنة تكفلا بالباقي. هرم هذا الجيل من دون أن يترك ورثة بالمعنى الحقيقي، في زمن الإنترنت و«الفايسبوك» و«التويتر»: تغيّرت التقنيّات والذهنيّات أيضاً! ربّما كانت الصحافة المكتوبة يتيمة اليوم، محرومة من جيل أعطى العمل الميداني ملامحه ومذاقه... فيما يفرز زمن الفضائيّات جيلاً آخر من المراسلين وصحافيي الميدان. جيل آخر، بمنطق مختلف وبوسائل تواصل فوريّة، لا علاقة لها بسحر المكتوب وخصوصياته.

فجأة، اكتشف الناس إشكاليّة تمويل الإعلام المكتوب. التمويل المحلي والأجنبي والعربي للمؤسسات الإعلامية قديم، لكنه لا يصنع المنبر الإعلامي، بل يصنعه الصحافيون أولاً وأخيراً. وفي هذا السياق، نستعيد اليوم جيل مي ضاهر، ونبحث عمّا يميّزه عن الأجيال السابقة واللاحقة. لولا هؤلاء الصحافيون، لما بقيت المؤسسات الإعلامية اللبنانية، ولما نجحت، ولما أنتجت ووزّعت. الذين دخلوا «الميدان» بعد الحرب، يدينون لأولئك بالكثير. إننا ندين لهم بالحفاظ على المؤسسات، وتطوير هذه المهنة. لماذا أبعد جيل الحرب عن المؤسسات الإعلامية؟ السؤال مرتبط بأولويّة الدفاع عن أخلاقيات مهنة الصحافة... وعن شروط العمل في بلد لا يعرف الاستقرار.